# تأثير عولمة الاتصال (ثورة المعلومات) على تراجع القيم في المجتمعات العربية

**الأستاذة: ليلى مداني بومرداس**

**الملخص:**

تعتبر الثقافة بما تحمله من قيم ناتجة عن الدين والعادات والتقاليد أساس بناء المجتمعات وأساس بقاء الدول واستمرارها،إلا أن هذه الأخيرة تشهد تراجعا عالميا سواء تعلق الأمر بالقيم الإنسانية العامة أوالقيم الخاصة بمجتمعات معينة كالبلدان العربية،ولعل السبب الأساسي يرجع إلى التطور الذي عرفته تكنولوجيا التواصل والاتصال والإعلام والتي جعلت العالم مسطح وكل شيء فيه أصبح مرئي ومسموع وحتى مباح لدرجة أن القيم الأخلاقية تراجعت وتتراجع بشكل كبير وسريع خاصة في المجتمعات العربية دون وجود أي بوادر للحد من التأثير السلبي لهذه التكنولوجيا ودون إدراك لخطورة ذلك على الهوية الخاصة بكل مجتمع وعليه تم مناقشة الجوانب السلبية لتأثير ثورة المعلومات على الشباب العربي من خلال التطرق إلى أسباب اتساع القيم الدخيلة ونفوق القيم الأصيلة خاصة لدى الشباب العربي،وكذا كيفية تأثير تكنولوجيا المعلومات سلبا على هوية الفرد،وأخير تم التأكيد على أهمية القيم الأصيلة كإطار مرجعي لحفاظ المجتمعات على هويتها وبقائها من

خلال مقارنة أهمية رأس المال الثقافي في تطور الدول ومستقبلها خاصة الدول العربية.

**الملخص باللغة الإنكليزية:**

Culture and a values is the result of the religion ،customs and traditions and it is the basis of societies and survival and continuity of states ،but since 21 center values declining globally and all general humane values ،and or values of certain communities ،such as the Arab states ،and the reason for the development of the communication and information technology knew which has made the world is flat ،therefore discussed in this paper the negative impact of the information revolution on Arab youth through addressing the causes of the expansion and alien values and intrinsic values ، especially among the Arab youth ،As well as how the information technology impact negatively on the identity of the individual ،and finally ،emphasis the importance of the intrinsic values as a reference for maintaining their identity and survival of communities in comparison with the importance of cultural capital in the development of Arab States and her future.

**مقدمة**

إن التطور التكنولوجي الذي عرفه العالم سابقا لم يكن له ذلك الأثر المباشر على حياة الفرد من خلال إحداث انقلاب في أسلوب حياته،كما يحدث اليوم في ظل التطور التكنولوجي الذي شهدته جميع مجالات الحياة خاصة في مجال الإعلام والاتصال من خلال مواقع التواصل الاجتماعي،وان كان ذلك التطور يوحي بالايجابية ظاهريا من خلال تسهيله للوصول إلى المعلومات والتسلية والترفيه...وغيرها من الجوانب الايجابية التي يقدمها هذا التطور التكنولوجي أوما أطلق عليه "مارشال ماكلوهان" منذ أكثر من أربعين سنة تسمية الحتمية التكنولوجية "Technological Determinism"[1]،إلا أنه عند التعمق في الأمر نجد أن الثقافة التي ولدها هذا التطور التكنولوجي سواء تعلق الأمر بوسائل الإعلام والاتصال،أوحتى خاصة من خلال تكنولوجيا التواصل الاجتماعي عبر الشبكة العنكبوتية والتي يزداد استخدامها بشكل كبير جدا،وفي ذات الوقت تأثيرها يوما بعد يوم،خاصة في الجانب الثقافي والأخلاقي والقيمي.

وعليه ارتأينا ضمن هذه الورقة البحثية لفت الانتباه إلى صعوبة أوحتى خطورة التواصل بين الأجيال في ظل الهوة التي تتشكل خاصة مع زيادة احتمال انقراض القيم والثقافات الأصيلة في المجتمعات العربية مع اتساع التنميط لحساب ثقافة الاستهلاك والتفاهة وبالتالي ضرورة

معالجة إشكالية الانعكاسات السلبية لثورة المعلومات على ثقافات وقيم المجتمع العربي خاصة فئة الشباب؟ وتأثير ذلك على مستقبل البلدان العربية؟

إن التطور التكنولوجي في مجال وسائل الإعلام والاتصال يعرف ثورة حقيقية،ولعل المشكلة الأساسية هي أن الكثير من الدراسات أوضحت أن "الأجيال الناشئة تنظر إلى هذه الوسائل كمصدر للقيم والأخلاق مما يجعل تأثيرها لا تقل قوته المرجعية عن الأسرة أوالمؤسسة التعليمية وربما حتى الدينية أحيانا"[2]،هذه المكانة التي تحضى بها وسائل الاتصال والإعلام الحديثة لدى الشباب في العالم ككل والمجتمعات العربية بشكل خاص،والتي بدأت تظهر من خلال سلوكاتهم،فهي في حقيقة الأمر تعطي ثقافة هجينة من خلال تأثيرها على طريقة تفكيرهم وعملهم وحتى قناعاتهم وقيمهم وأخلاقهم،والتي تختلف بشكل كبير عن تلك التي ورثناها نحن عن أبائنا وأجدادنا،فقد أدى ذلك التطور الذي بدى ايجابيا خاصة من خلال تسهيل حياة الفرد إلا أنه على النقيض منها نتيجة الانعكاسات السلبية التي أدى إلى ترسيخها،كالثقافات والقيم الدخيلة،وتكوين ثقافة هجينة خاصة من خلال المساس بالقيم المرتبطة بالمعتقدات الدينية والأخلاقية،والتي لا طالما شكلت ركيزة أساسية في بناء المجتمعات، لذا لا بد من التفكير بصفة جدية في كيفية الحد من التأثير السلبي لهذه الوسائل،والذي يعكس ثقافة تنحصر حدودها ضمن

ثلاث مجالات والتي يمكن التعبير عنها من خلال المصطلحات التالية: "الإفلاس الأخلاقي والفقر العاطفي وثقافة الإسراف والاستهلاك"[3].

هذه المجالات الثلاث التي تعطي في محصلتها النهائية الطبيعة اللاانسانية للفرد في العصر الحالي،والأمر راجع إلى التغير الذي تشهده المعايير التي يتم الاعتماد عليها لقياس كفائة الفرد في المجتمع،طبعا سابقا كان الدين والفكر يحضيان بالأولوية عند مختلف أفراد المجتمع بغض النظر عن المستوى العلمي أوالاجتماعي،أما اليوم فالمعيار الذي يعرف اتساعا هوالمادة (ما يملكه الفرد) كمقياس لدى أفراد المجتمع في تصنيف الفرد،وهذا ما يظهر في حياتنا الاجتماعية التي تعرف تسارع كبيرا إلى جانب معارفنا الالكترونية،وكل ذلك تلبية لتزايد متطلباتنا المادية على حساب الجانب الروحي والقيمي والأخلاقي.

**1-أسباب انحراف الشباب وراء القيم الدخيلة (الإفلاس الأخلاقي والفقر العاطفي وثقافة الإسراف والاستهلاك).**

يعتبر الدين أغنى مصدر للقيم لدى مختلف شعوب العالم سواء كان سماويا اووضعيا وتلك القيم التي رسخها الدين عبر الزمن لطالما شكلت الركيزة الأساسية لبناء أي مجتمع ضمن الحدود الأخلاقية التي يضعها إلا أن التطور التكنولوجي في عصرنا الحالي دفع الأفراد في العالم ككل إلى البحث عن سبل للتحرر من تلك الحدود الأخلاقية التي اعتبرها قيود لحريته،وبالمثل كان حال الشعوب العربية خاصة فئة الشباب "فالتحرر

الشخصي والتحرر الاجتماعي يسيران جنبا إلى جنب،ويعتبر الجنس والمخدرات هما أوضح الطرق لتهشيم سطوة الروابط مع الدولة والآباء والجيران والقانون والتقاليد والأعراف المتبعة"[4]،لدرجة أن هناك الكثير من أنماط السلوك التي كانت تعتبر سلوكات شاذة أولا أخلاقية أومنحرفة أوحتى غير مقبولة،أصبحت اليوم ممارسات علنية سواء كفعل أوقول أوسلوك اعتيادي في المجتمع،مثلا في المجتمعات العربية طرق اللباس للذكور والإناث وطرق الكلام والسلوك ومطالب المساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء ومطالب التحرر من كل شيء،هي كلها تشكل ذلك الجانب السلبي من تأثير التكنولوجيا الرقمية على الشعوب العربية، وخاصة فئة الشباب العربي الذي يتميز بقابليته للاستلاب أكثر من أي شعوب أخرى،نتيجة الأوضاع التي مر بها سواء تلك التي خلفها الاستعمار أوحتى ما جاء بعدها من أوضاع لم تغير الكثير في تقدم وتطور تلك الدول.

إن دول العالم الثالث بصفة عامة والمنبهرة بما وصلت إليه الدول المتقدمة جعلت ذلك الكم الهائل من التطور يجتاح المجتمعات العربية في مظهره لا جوهره ليهدد هويتها الهشة،طبعا من المؤسف القول أنه خلال القرون الماضية كانت الإشكالية تطرح بالنسبة للمهاجرين العرب نحوالدول الأوربية وتأثر أبنائهم بالوسط والتنشئة الأوربية بحكم تعلمهم في المدارس الأوربية،لكن اليوم أصبح الإشكال يطرح بالنسبة لأبنائنا

المتأثرين بمظاهر التقدم لربما أكثر من أبناء المهاجرين،وعليه يمكن أن نحدد مظاهر ذلك التأثر وأسبابه ضمن العناصر التالية:

**أولا:الإفلاس الأخلاقي:** والذي يرجع أساسا إلى انهيار سلم القيم التقليدية نتيجة انهيار الأصول الاجتماعية والدينية كمرجعية أوكقاعدة أساسية لتكوين الفرد "إذ تعيش القيم المتطلعة إلى الوراء والقيم المتطلعة إلى الأمام جنبا إلى جنب ويدور بين هذه وتلك صراع فكري عنيف،تزداد حدته بقدر تشبث القديم بآخر معاقله،والجديد حسب تأكيده لذاته وإثباته لجدارته بالبقاء"[5]،فالأخلاق وان كانت في تطور مستمر،إلا أن الإيمان أوالمعتقد من خلال الدين والذي عادة ما يؤكد ويكرس جملة من الأخلاق الثابتة التي لا يمكن أن تتغير بتغير المكان والزمان،وحتى في ظل التطور التكنولوجي المتسارع،إلا أن هذه الأخيرة أي الأخلاق أصبحت محل شك كقيم ثابتة إذ أن التطور التكنولوجي خاصة من خلال وسائل الإعلام والاتصال أدى حسب الكثير من الباحثين أمثال كازانوف (Cazaneuv ) ولبوتفسكيS. Lipotveski إلى "هدم الإنسان واستلابه من خلال منع تكون هوية متماسكة للإنسان المعاصر،والتي تجعله على مسافة وهمية من مشكلاته وتدفع به نحوالتراجع العقلي إلى درجة الوصول لموقع الإحساس باللامسؤلية"[6]،والذي يلغي كل الحدود الجغرافية وحتى الأخلاقية،أين لا رقابة ولا قانون يمكنه أن يضبط سلوك ذلك الفراد،وهوما يؤدي تدريجيا إلى إلغاء ارتباط الفرد بكل الأنساق الفكرية

والقيمية والأخلاقية،وحتى روابط الانتماء المكاني والوطني من هوية ومعتقدات وأعراف.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الأمر لا يتعلق فقط بوسائل الإعلام التقليدية التي أهملت الجانب التربوي وانحصر تركيزها على الجوانب الأكثر إثارة وجلب للمشاهدين،حتى بالنسبة للأطفال أين لم تعد تراعي شركات الإنتاج الإعلامي الجانب التربوي والأخلاقي حتى في أفلام الكارتون،والتي أصبحت اليوم تأخذ طابعا عنيفا في إطار الصراع بين الخير والشر بطريقة عنيفة جدا مليئة بالإثارة دون مراعاة لتلك الصور التي تجعل الأطفال يألفون العنف والتوحش لنستيقظ ذات يوم ونتساءل ما الذي جعل العالم أكثر عنفا وهوما يميز الإعلام الحديث ف"الفضيلة الأخلاقية خلافا للفضيلة العقلية أوالفكرية فهي تتبع بمجملها من العادة أوالطبع...لذا لا يعد ما تعلمناه منذ الصغر من هذه المجموعة من العادات الأخلاقية أوتلك أمرا عاديا بل على العكس يعتبر أمرا مهما بل بالغ الأهمية"[7] في تكوين شخصية الفرد وأفكاره وأخلاقه وبالتالي هويته وطبيعة حياته ومستقبله.

**ثانيا: الفقر العاطفي:** الذي يعتبر نتاج للثقافة التي يتم صنعها والترويج لها من خلال تشتت الأشياء والقيم،خاصة من خلال الانحلال الذي مس النواة الأساسية لتكوين الفرد أي العائلة،فالانحلال العائلي عادة ما يؤدي "إلى اضطرابات مرضية تصيب الهوية وهي نتيجة ضعف العلاقات

العاطفية والتي نتج عنها عدم استقرار عاطفي،كما يعود هذا الأخير إلى وجود تربية تنعدم فيها نماذج معينة تساعد الطفل على التكون،مما يؤدي إلى اضطرابات في كينونة الهوية الفردية...ولعل الخطورة تكمن حينما يتحول الانحلال العائلي إلى ظاهرة اجتماعية عامة،ولأسباب اقتصادية واجتماعية وثقافية مما يجعل أزمة الهوية تصبح ذات طابع اجتماعي تتسم بالعموم وتظهر في شكل معاناة ذاتية وجودية تتبع عنها ممارسات عنيفة كالاحتجاجات والإرهاب"[8]،حيث أصبح المزاج العام والسائد هومزيج من المراهقة والهمجية التي تفشت كالوباء في كل أرجاء العالم،والسبب أزمة العائلة نتيجة تغير المعايير العامة التي تحكم السلوك الجنسي والمشاركة والإنجاب من خلال ارتفاع معدلات الطلاق والجريمة والعنف وزيادة الأنانية واللامبالاة،إلى جانب جملة من القوانين المتسامحة التي يسرت ارتكاب الأعمال الممنوعة وساعدت التغطية الإعلانية لهذه القضايا،حيث "أصبح مجرد عدم السير مع الموضة التي (هي في الأصل) تفرض على المجتمع والتي (مع الأسف) يظن أنه هوالذي فرضها أصبح جهلا"[9]،مما أنتج فقرا عاطفي،والمشكلة لا تكمن فقط في صناعة الثقافة،بل في طبيعتها "فبالإضافة إلى كونها تخدع الناس بل (الأدهى والأمر) أنها تعرض هذا الخداع على أنه ضرب من التنوير"[10]،طبعا ليس هذا هوالسبب الوحيد ولكنه يتقاطع ويوطد الأسباب الأخرى التي ترتبط بمختلف المؤسسات التقليدية التي تخلت نوعا ما عن

دورها،خاصة أنه كان لها دور في الحفاظ على الفرد ضمن ما يمكن أن نطلق عليه بالعاطفة السوية،سواء تعلق الأمر بالأسرة أوالمدرسة أوحتى المؤسسة الدينية،والسبب هوتلاشي الروابط التقليدية التي هي أساس المجتمع الحقيقي إلى الروابط الافتراضية التي تضمنها شبكات التواصل الاجتماعي،وهذا ما سيجعل أمم عظيمة تبدد كل رصيدها من الشرف وكل ما احتواه ضميرها ووجدانها من آداب السلوك المتحضر...والإشكال يتمثل في عدم إمكانية تحديد مدى نموواانتشار هذه البلطجية الثقافية ومدى ترهل القيم الأخلاقية...وأخيرا هذا التضخم التقني الذي لا شك في انه المسؤول عن ذلك إلى حد كبير"[11].

**ثالثا: ثقافة الإسراف والاستهلاك:** يمكن توضيح ذلك ببساطة من خلال انقلاب المقولة المشهورة لديكارت والتي كانت تنطبق على إنسان ذلك العصر هي "أنا أفكر...فأنا موجود"،أما اليوم فما ينطبق على هذا الإنسان هو"أنا أستهلك...فأنا موجود"،والمؤكد أن الفرد سينال الاهتمام الذي يحسب أنه يريده من المجتمع ومن المصنع ومن التجار على قدر استهلاكه،فكلما زاد استهلاكك أثبت وجودك أكثر فأكثر،...فالاستهلاك هوالضامن لشعوك بالبقاء...فالاستهلاك يساوي الحرية ويأتي بالسعادة"[12]وهوما يعني أن السلعة هي ذات أهمية بغض النظر عن درجة منفعتها،وهوما أطلق عليه علماء الاجتماع بـ "الفتشية السلعية" ضمن ما تعنيه من استبدال المنفعة التي تقدمها السلعة بمجرد امتلاك

السلعة ذاتها،وهوما يعني تحكم السلعة في الإنسان بدل العكس و"تصبح السلعة ذات قيمة محورية في حياة الإنسان تتجاوز قيمتها الاقتصادية وغرضها الاستعمالي. ..إلى كونها غاية في حد ذاتها...(بل أكثر من ذلك فكل شيء غير مادي قد تم تحويله إلى شيء مادي) كالفكر والفن وحتى الإنسان باعتباره مجرد رقم أوسلعة وهوما يعني نزع الإنسانية منه"[13]،والإلغاء التدريجي لهويته ومكانته المحورية الوجودية.

ويوكد "دانيل بيل"Daniel Bell أن ميزة المجتمع الحالي أوما يسميه بالمجتمع ما بعد الصناعي هي لعبة الإنسان مع الإنسان،وذلك نتيجة الضرورة الملحة لتعلم الناس العيش مع بعضهم البعض[14]،إلا أن الإشكال الأساسي لمرحلة ما بعد الحداثة لا تتمثل فقط في ثنائية الرؤيا على مستوى أعلى أي الحضارة بل حتى على مستوى الفرد،والأمر راجع كما أشار كل من دينيس ألكساندرروفيتش تشيكالوف وفلاديمير ألكساندروفيتش كوندراشوف في كتابهما بعنوان: **تاريخ الثقافة العالمية** أن الإشكال يبدأ حتى على مستوى أدنى الفرد وذلك راجع إلى "أن إنسان حالة ما بعد الحداثة الهادف إلى أغراض عملية بحتة يفتقر إلى أية حوافز لرؤية الشخص الآخر أكثر من كونه آداة لبلوغ أهدافه،ويصبح من الواضح أنه ينبغي أن يقود الدافع الأخلاقي الإنسان...في ذات الوقت تهيمن الحتمية المحلية في ثقافة ما بعد الحداثة. ..والتي تعني عدم وجود قواعد مشتركة للمجتمع بأسره"[15]،في العالم ككل،وعليه تتزايد مطالب الفرد في المجتمع

العربي بتمرده على التقاليد نتيجة تأثره بما وصل إليه الغرب من تحرر (المجتمع الاستهلاكي) من جهة،ونتيجة أزمة الهوية الشاملة مما يدفعه إلى البحث عن تعويض ذلك بإزالة كل ما يعترض حريته الفردية دون أي وعي أوإدراك لما سينجر عن ذلك،وبغض النظر عن الأضرار التي قد تنعكس على المجتمع ككل من خلال تعميمها،فوجود ممارسات أوسلوكات أصبح مسموح بها اليوم في المجتمع العربي ليس لتحولها من ممارسة لا أخلاقية إلى أخلاقية بل لاتساع ممارستها،ومن المؤسف القول اليوم أن الكثير من المفاهيم قد أفرغت من مضامينها نتيجة الممارسات التي لم تعد تعكس فحواها،ومن بينها أن "مفاهيم التقدم والإنسانية والعقلانية أفرغت من مضامينها وذلك لأنها أصبحت أدوات إيديولوجية للهيمنة الغربية على العالم"[16] من خلال تلك الرؤيا التي تطرح القيم الغربية كقيم عالمية متقدمة تدفع للتطور إذا لا غنى عنها إن لم يكن اليوم ففي المستقبل وهوما يتناقض مع أسس الخصوصية المجتمعية والهوية،لذا فان المسؤلية في نهاية المطاف تقع على الفرد الذي بيده الخيار "فقرار الفرد هوالذي يمكن أن يودي إلى ممارسة متوازنة ايجابية للنزعة الاستهلاكية من خلال الاتزان بين القوى المتضاربة،وأن لا يعمل بشكل إلزامي أوبإدمان حتى يمكن أن تعبر خياراته أواستخدامه للأشياء عن ذاته العميقة أوعن باطنه"[17]،فإدارة الذات على نحومتوازن بين

الماديات والمعنويات هوما يجب أن يكون علية الفرد العقلاني الواعي بحقيقة احتياجاته بعيدا عن فرط الاستهلاك دون منفعة حقيقية.

**2- دور وسائل الإعلام والاتصال الحديثة في تسهيل انتشار القيم الهجينة (الدخيلة) في المجتمعات العربية.**

من المؤسف القول أن مثقفي الإعلام ألئك اللذين " يطفون حول مآسي العالم ويعتبرون أنفسهم أنهم يقومون بأعمال مقاومة"[18]،طبعا ليس كل الإعلاميين لأن هناك من يخاطر بحياته لنقل الحقائق،وهناك من يفعل العكس،فالتغطية الإعلامية الفعالة من خلال الصور قد تجعل الضحية مجرما،كما قد تغطي حدثا بارزا ككارثة طبيعية فتصورها مأساة في هذا البلد وفضيحة في بلد آخر،بحيث تحضي الأولى بالتعاطف والتضامن ويجعل من الثانية خطئ من الدولة أوالمجتمع أوحتى غضب من الطبيعة والذي لا مفر منه،إن وسائل الاتصال الحديثة يمكن القول أنها تتمتع بكونها وسائل اقتصادية ربحية لا حدود لها سواء في الجوانب السياسية أوالاجتماعية أوالثقافية ويظهر ذلك من خلال ما يلي:

- تقدم وسائل الإعلام والاتصال الحديثة خدمة عامة للجميع دون استثناء ودون قيود جغرافية أوزمنية أوقيمية،فمثلما تنشر الحقائق والفضيلة تقدم بذات الكم أوأكثر من ذلك الإشاعة والرذيلة.

– وسائل الإعلام والاتصال الحديثة ذات طبيعة سياسية قد تحمل توجها معينا خاصة مثلا المؤسسات الإعلامية العامة والتي عادة ما تروج لتوجه معين لأغراض مصلحية خدمة لأهداف معينة.

– وسائل الإعلام والاتصال الحديثة صانعة لتوجه معين أوحتى قيم معينة ويتم الاعتماد في هذه النقطة على درجة الإقناع والإثارة والتغطية الإعلامية الواسعة الانتشار وعادة ما تستهدف فئتي الشباب والأطفال.

– وسائل الإعلام والاتصال هي وسائل ربحية بالدرجة الأولى وهدفها ليس خدمة الجمهور بقدر ما يرتبط بتحقيق الأرباح وضمن هذا الإطار يقول ملتون فردمان Milton Friedman" إن المسؤولية الاجتماعية الوحيدة لأي مشروع هي زيادة أرباحه"[19] وذلك بغض النظر عن درجة منفعة وقيمة ما يقدمه كإعلام هادف دوقيمة أخلاقية.

ولعل من أبرز مميزات الإعلام والاتصال المعاصر والذي يجعل تأثيره يزداد بشكل كبير في العالم ككل والمجتمعات العربية بشكل خاص هوما يلي:

- سرعة الاتصال
- قلة التكلفة خاصة الانترنت وسهولة استخدامها.
- تعدد اللغات المستعملة[20].
- عالمية أخبار على مدار الساعة عن كل شيء دون استثناء وسرعة انتشارها.

- التحرر من كل القيود من السلطة إلى الأخلاق إلى القيم والمعتقدات الدينية.
- مقدمة لرسائل سريعة جدا ضمن محيط مفتوح سواء كانت رسائل مغلوطة أوصحيحة سواء تحمل قيم أورذائل وسواء كان يراد بها الخير أوالشر...إلخ. قد تنشر أخبار كاذبة بسرعة وتؤثر في الفرد،بحيث تعتمد على صور محددة وكلمات بسيطة تؤثر بشكل مباشر على الدماغ وأحيانا من هلال روبوتات الواب لحسابات والتي تعمل بشكل آلي أكثر من 50 منشورا في اليوم، وهي تشكل أحيانا قرصنة كاذبة في إطار حرب للمعلومات
- تعرض كل شيء بتكرار وتنوع وبشكل دائم ومستمر.
- تشكل إدراك الإنسان لواقعه،فلا يستبعد أن تحدد وسائل الإعلام النظام اليومي للمجتمع،فهي لا تستطيع أن تملي على الناس موضوعا يفكرون به،ولكنها تقرر ما يجب عليهم أن يفكروا به وما لا يجب أن يفكروا به"[21]
- الإعلام أيا كان شكله فإن الدافع الحقيقي مرتبط بمن يموله،أما الفردي فيرتبط بما يتصوره وكلاهما يحتمل الصواب والخطأ في مدى تطابقه مع الواقع.

•الإعلام أصبح له دور كبير جدا من خلال وجوده كجبهة تصنع أوتعطي صورة عن الواقع،إلا أن الإشكال هوفي مدى توافقها مع معتقداتنا وقيمها.

إن وسائل الإعلام والاتصال الحديثة تؤثر بشكل مباشر على الفرد سوء في إدراكه أوتفكيره وحتى في قيمه ومبادئه الأخلاقية وقد تصل إلى دينه "فالمنتجات الإعلامية التي تنتجها خاصة الدول الكبرى هي الأكثر رواجا،وتأتي في مقدمتها الولايات المتحدة إذ تشير الدراسات إلى أن هذه الأخيرة "لا تسمح إلا إلى 2% من البرامج المستوردة"[22]،وبالتالي تحافظ على هويتها من خلال منع ما هومستورد لمنع انتشار القيم الدخيلة،وهوما لا نجده كمقترح أومشروع في البلدان العربية خاصة بالنسبة للأطفال،وهنا يصبح "من قبيل الظلم والعجز عن فهم الأمور أن يعيب الجيل الأقدم على الجيل الأحدث أمورا لا يمكن أن يكون الجيل الأحدث قد اختارها بنفسه،بل لا بد أنه تلقاها على هذا النحوممن في يده مقاليد أموره"[23]،سواء تعلق الأمر بالأسرة أوالمؤسسات التعليمية والدينية أوحتى الإعلام.

إن استمرار التطور التكنولوجي في وسائل الإعلام والاتصال وتسارع تكيف الفرد بكل ما هومرئي أوسمعي وبصفة دائمة ومتواصلة وسريعة دون انتقاء سيجعل من صورة المجتمع كما نعرفه تتلاشى كليا "بانتهاء الجيل الذي شهد المجتمع الحقيقي الذي كانت المعرفة أهم سماته والفكر

قوامه والعلاقات الحقيقية هي التي كانت تربط أفراده سواء على مستوى العائلات أوالصداقة...وغيرها من الروابط الاجتماعية الحقيقية...إلا أنه للأسف المجتمع اليوم هومجتمع افتراضي لا روابط بين أفراده سوى تلك التي أنشأتها الشبكات الاجتماعية الافتراضية...هذا المجتمع الافتراضي الذي فقدت فيه كل المشاعر التي كانت تنتجها الروابط المنبثقة عن المفاهيم الراقية التي لا يعرفها أبناء هذا المجتمع الافتراضي كالأبوة والأمومة والأخوة والصداقة[24]،كل وسائل الإعلام سواء التقليدية أوالحديثة تشترك في جعلك أنت أيها الفرد مستهلك أوزبون تروج لسلعها بعيدا عن القيم والأخلاق

**3-أهمية القيم الأصيلة كإطار مرجعي لاستقرار وبقاء المجتمعات العربية،ومستقبل هذه الأخيرة:**

يتفق الجميع على وجود مجموعة من القيم المشتركة كالحق في الحياة والعدالة والمساواة كقيم عالمية إلى جانب قيم أخرى ترتبط بخصوصية كل ثقافة،فالثقافات تختلف في النظر إلى هذه القيم لان لكل ثقافة وخصوصياتها،وتعتبر القيم بهذا المعنى "القوة الدافعة وراء مجمل الحركة الاجتماعية،وتتصرف عبرها ومن أجلها طاقة المجتمع في أعمق المستويات،إذ أنها معالم التطلعات الجمعية تحت الشعورية وصورة المجتمع عن ذاته وفهمه لنفسه ولنهجه في الحياة"[25]،وهوما يجعلها المحرك الأساسي للمجتمع نحوالأمام،فلا نظرية التبعية ولا الحداثة

أصبحتا قادرتين على تفسير أسباب تقدم أوتخلف المجتمعات لذا فإن كل الدراسات الحالية تتجه نحوالتأكيد على "دور القيم والاتجاهات الثقافية كعوامل من شأنها أن تسير أوتعيق التقدم...وهذه الرؤية هي امتداد لما خلص إليه "ألكسيس دي توكفيل" من خلال أن النظام السياسي الأمريكي قد نجح نتيجة توفر ثقافة ملائمة مع الديمقراطية"[26]،وهوما يجعلنا نتساءل هل تملك الدول العربية ثقافة تتلاءم مع ما تستورده من أنظمة سياسية وحتى اقتصادية ولم تستطع هذه الدول أن تنتج أنظمة تتوافق وثقافتها،في الوقت الذي استطاعت دول إسلامية أخرى القيام بذلك كماليزيا،وهوما يجعل الإشكال ليس في تغير الثقافة الإسلامية وما تحمله من قيم بقدر ما يرتبط بتكيف الأنظمة التي يتم استيرادها مع القيم التي تسود المجتمع،أوإيجاد أنظمة أصيلة تتوافق مع تلك القيم،فلكي "يبقى التقليد حيا يحتاج لمن يحميه وينقيه ويعصرنه وينظمه ويبرزه محليا أووطنيا،وإلا سيبقى فضفاظا ومبهما في كثير من الأحيان أوحتى موضع شك كبير"[27] وبلا جدوى فالتجارب تثبت أهمية الأخلاق والقيم كمعطى عام يحتويها من خلال أهمية الثقافة في بناء رأس المال البشري الذي يمكن الاعتماد علية وليست ببعيدة المعجزة اليابانية أوحتى الألمانية التي يتفق الجميع على أن سبب هذه المعجزة هو"أن الأداء الياباني بني على ظاهرة رأس المال البشري الذي حددته وصاغته الثقافة"[28] اليابانية التي

تقدس العمل والانجاز والروابط العائلية وتؤكد على أهمية التعليم والانجاز.

لعل الخطر الأساسي الذي يتهدد البشرية ككل هوأن "الإطار الحضاري الآخذ في التطور لا يتألف من حداثة نقية بالمفهوم المعياري فبدلا من امتلاك العلم والاقتصاد والديمقراطية في صياغة نقية،نجدها قد امتزجت بصفات مصالح منطقة لغوية وثقافية ما،أوحتى قد اختلطت بمصالح الاقتصاد القومي أوبمصالح مشروعات محددة"[29] وهوما يجعل من انتشار الثقافة الغربية كمرجعية للتقدم والتحضر لدى الكثير من الشعوب العربية مرتبطة بمشاريع للهيمنة والاستلاب الحضاري،بدلا من دفعها للدول العربية نحوالتقدم،لأن "الذهنية التي تتشكل لدى الإفراد هي التي تحدد خياراتهم،وبالتالي تشكل الدعامة الأساسية لخلق التغيير"[30]،فهل هذا يعني ضرورة تغيير الثقافة العربية بما تحمله من قيم وفقا لمتطلبات العصر؟ "فالحرية والمسؤولية توأمان...من خلال ضرورة وجود حدود لحرية كل إنسان وتفرض التزامات على كل فرد وتشتق هذه القواعد من مجموعة من المبادئ الأخلاقية يتبناها أي مخلوق بشري...وان كانت هناك قيمة إنسانية يتفق عليها الجميع وهي الحفاظ على الجنس البشري أي مصير كوكب الأرض،فلا بد لهذا الاهتمام أن يحركهم جميعا مهما كانت إيديولوجيتهم ودرجة إيمانهم الديني،فهم مهددون كما لم يهددوا من قبل فقد اكتشفوا العدوانه أنفسهم

بالذات[31]،والسبب هوغياب المسؤولية الذاتية من خلال الانحطاط الذي تتوجه نحوه طرق التواصل سواء تلك التقليدية أوحتى الحديثة من خلال الفساد الذي طال حتى وسائل الاتصال من خلال الترويج لكل ما هوسيئ،فلا بد لوسائل الإعلام ولكل فرد متفاعل ضمن مواقع التواصل الاجتماعي أن يهتم بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والعلمية من خلال جعل الآخرين أكثر علما وأكثر حضارة،وان ترفع من سويته المعنوية ومن عقلانيته وان تحافظ على ثقافة الماضي وتساهم بتفتيح أشكال ثقافية جديدة"[32] نابعة من خصوصية كل مجتمع.

ولعل الإشكال الأساسي اليوم في المجتمع العربي انه لم تعد هناك معايير أومقاييس واضحة تبين حدود سلوك الفرد التي يمكن اعتبارها مقبولة ضمن تلك الأطر،أوما هوالطريق الذي يجب على الدول العربية أن تسلكه؟ من المؤسف القول أن دول العالم الثالث بشكل عام والدول العربية بشكل خاص تأخذ كل ما هومستورد دون تميز،فعند القيام بمقارنة بسيطة بين ما وصل إليه اليابان من تقدم تكنولوجي وتقني وما وصل إليه العملاق النائم الصين إلى جانب النمور الآسياوية من تطور في الكثير من المجالات إلا نتاج للقيم التي ترتكز عليها هذه الشعوب والأمم في تطلعها نحوالأفضل مع حفاظها على أصالة نموذجها القيمي بكل ما يحمله من عادات وتقاليد (كالقيم الكنفوشيوسية التي تؤكد على حب العمل والانجاز والتعليم والجدارة والادخار والمستقبل) وهذا ما يترجم "

الحقيقة القديمة التي تقول أن هناك تأثير لما هومعنوي فيما هومادي وهوما يعرف حديثا برأس المال الثقافي "Cultural Capital"[33]،فتمسك الشعوب بقيمها لا يعني أنها مقاومة للتطوير أورافضة للتغير،ولكن أخذ ما يتناسب وخصوصية ثقافتها وقيمها كمحرك نحوالتطوير نتيجة وجود توافق بين الثقافة والقيم والمبادئ التي يؤمن بها الفرد والواقع الذي يعيشه،بحيث كلما اتجه الفرد إلى الغلوفي القيم لدرجة التعصب كلما ازداد انغلاقا وتحجرا ورفضا لكل تغيير بغض النظر عن ايجابيته،والعكس كلما ازداد تخلي الفرد عن القيم الأخلاقية التي لا بد له من الارتكاز عليها متجها نحوالبحث عن التحرر والغلوفي البحث عن التطوير بمفهومه كمظهر وازدادت مطالب الحرية والتحرر من كل القيود اقتداء بالأخر كلما تفشت أشكال ومظاهر العبث والرذيلة والتفاهة،وفي كلا الحالتين سيكون الفرد بعيدا كل البعد عن الواقع الحقيقي الذي يعيشه ولا مجال للتطور والتقدم،كذلك الذي يتطلع من قاع البئر فلا يرى إلا جزءا ضئيلا من السماء فالأول يرى بعدم ضرورة التطلع لأن انغلاقه ضمن حدود المبادئ التي رسخها لا تسمح له بالتطلع،والثاني يرى في ذلك الجزء كل شيء دون أن يدرك أن ما تظهر عليه السماء ما هوإلا واجهة قد لا تشكل من حقيقة الوضع شيء،وضمن هذا الإطار يدور في الدوائر الأكاديمية الأمريكية البحث في إطار فكري يتمثل في نظرية لاستبطان الواقع أوالنظر إلى باطن الواقع والتي ترتكز على القيم

والمواقف الثقافية وتأتي هذه النظرية لتملأ الآن بالتدريج الفراغ التفسيري المتخلف عن انهيار نظرية الاعتماديةDependency Theory"[34]،ومن خلال ذلك تم التوصل إلى أن كل من "الثقافة والتقدم تشتملان على تداخل معقد بين السبب والنتيجة ولكن الثقافة لها قوة فاعلة يمكن إثباتها...وببساطة يمكن أن نلحظها من خلال الانجاز الاقتصادي للأقليات العرقية في الكثير من الدول كالصينيين في كل من تايلاندا وأندونسيا والفلبين"[35]،وهذا ما يجعل تلك المقولة التي لطالما روج لها السياسيون ووسائل الإعلام الغربي خاصة مع بداية القرن21 من خلال أن ما يصلح لنا يصلح لكل العالم مجرد خطاب عاطفي لفوقية لا حدود لها ولا مجال لتطبيقها على أرض الواقع.

"إن التهديد الذي يواجه الإنسان لا يأتي في المقام الأول من الآلات والأجهزة التقنية ذات الإمكانيات المميتة،إن التهديد الفعلي ظل دوما هوما يبتلي الإنسان في جوهره"[36]،أي قيمه وأخلاقه منها ما تم مناقشته من خلال تطور النظر إلى بعض القضايا كالاستنساخ والموت الرحيم وزراعة الأعضاء البشرية،وعليه لا بد من اتخاذ الإجراءات اللازمة لتوجيه القيم باتجاه خدمة أهداف التقدم والتحضر من خلال "تحديد القيم التي تؤثر إيجابا وسلبا سواء في تعزيز التقدم أوفي إعاقته"[37] من جهة وكذا ضرورة معرفة طبيعة التغير الذي يمس القيم وما هي العوامل الأكثر تأثيرا في تغيير تلك القيم،وكيف يمكن للحكومات وحتى الباحثين

والنخب التقليل من التأثير السلبي لتلك العوامل والتي يأتي على رأسها وسائل الإعلام والاتصال وتعميم تكنولوجيا التواصل الاجتماعي وهل تدفع بالاتجاه الايجابي أوالسلبي؟ هذا الاخير هوالذي سيشكل طبيعة الثقافة التي ستطبع البلاد العربية مستقبلا إذا لم يتم اتخاذ إجراءات الرقابة وضرورة التوعية والانفتاح الايجابي،بأخذ كل ما يتفق مع خصوصيات وقيم المجتمع،وعليه فما تبدوا عليه الأوضاع هواغتراب الإنسان عن إنسانيته بشكل عام وفي الكثير من دول العالم والتي تبدومن خلال الجوانب التالية:

- فقدان الإنسان العلاقة مع المشاعر الإنسانية الدفينة والعميقة واحتياجاته الإنسانية لدرجة يمكن أن يصل إلى إلغاء دور العائلة البيولوجية،حيث "تختفي وتنكر معطيات الحياة الوالدين والأجداد والعائلة والعرق والدين..."[38]

- إحساس الفرد بالعجز وشعوره بأنه غير قادر على التأثير في المواقف الاجتماعية المحيطة به.

- الإحساس بالعزلة وانفصال الفرد عن تيار الثقافة السائد،وهوما يتوافق مع ما قاله ذات يوم بنيامين باربر Benjamin Barber إنك إذا تجاوزت المحلي فإنك ستصل إلى لا مكان"[39]

- الإحساس باللامعيارية وغياب المعنى"[40] لدرجة غياب أي ارتباط بركائز قيمية فحتى القيم التي رسخها الدين منذ قرون لم يعد إنسان اليوم يأخذها بمحمل الجد.

وهنا يصدق ذلك التعبير الذي أطلقه عالم الأخلاقيات الحيوية ليون كاس Leon Kass على عكس الإنسان الذي يقهر المرض أوالعبودية،فالبشر الذين يتم تجريدهم من صفاتهم البشرية...هم ليسوا مدركين لتجردهم من صفاتهم البشرية،بل إنهم وهوالأسوأ لم يكونوا ليكترثوا لوعلموا بذلك والواقع أنهم عبيد يشعرون بسعادة الرقيق"[41]،وهوما ينطبق على عدد كبير من الشباب العربي،بالمقابل يمكن للمزايا التقنية في مجال الاتصال والتواصل والإعلام أن يكون أكثر ايجابية من خلال ما يلي:

– إذا تم تحيدها ضمن أطر أخلاقية يكون ضمنها احترام للمبادئ وقيم الأخلاقية التي تنظم سلوك الفرد في أي مجتمع.

– إذا تم اتخاذ كل الإجراءات للحد من ثقافة الاستهلاك والتوجه نحوالإنتاج من خلال كل ما هومحلي.

– إذا تم إدراك المخاطر التي قد تنتج عن تخلي الشعوب عن هويتها مقابل التوعية بالمخاطر التي تحملها ثورة المعلومات على شعوب قابلة للاستلاب القيمي.

وهنا لا يسعني سوى أن أتمنى أن تصل الشعوب وحتى الحكومات العربية إلى إدراك أنها تسير في الاتجاه الخطأ فحسب "برنارد لويس" فانه لا بد من طرح أحد السؤالين: الأول: ما الخطأ الذي ارتكبتاه؟ والثاني: من فعل هذا بنا ؟ وهنا حسبه أيضا أن الإجابة عن السؤالين ستقودنا إلى ما يلي: فأما السؤال الثاني فهويقودنا إلى نظريات المؤامرة والمشاعر العظيمة قرينة الاضطهاد،أما السؤال الأول فهوكيف نصحح الوضع"[42] ومن أين نبدأ ومن المهم أن نبدأ فعلا بتصحيح السياسات المحلية في الدول العربية،والتي يمكن من خلالها تعزيز بعض المعايير ورفض معاير أخرى لا تتوافق مع تقاليد وثقافة وقيم هذه الدول،وهنا يمكن أن نجد مخرجا للتعارض بين القيم الأصيلة والقيم الهجينة،فلا وجود لثقافة عالمية متماسكة ستحل محل مختلف الثقافات الفرعية التي تتميز بخصوصيتها.

الهوامش:

1- محمد علي فرح،**صناعة الواقع الإعلام وضبط المجتمع**،دراسات فكرية3،،[د.م.ن]،مركز نماء للبحوث والدراسات،[د.س.ن]،ص216

2- أحمد فهمي،**هندسة الجمهور كيف تغير وسائل الإعلام الأفكار والتصرفات**،الرياض: مركز البيان للدراسات والبحوث،2014،ص.20

3- روجر روزنبلات،**ثقافة الاستهلاك: الاستهلاك والحضارة،والسعي وراء السعادة**،تر: ليلى عبد الرازق،القاهرة: المركز القومي للترجمة،2011،ص.9

4- إريك هوبزباوم،**عصر التطرفات القرن العشرون الوجيز**،تر: فايز الصياغ،بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية،2011،ص582.

5- فؤاد زكريا،**آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة**،الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،2004،ص98.

6- الكس ميكشيللي،**الهوية**،تر: علي وطفة،دمشق: دار الوسيم للخدمات الطباعية،1993،ص .143

7- فرنسيس فوكوياما،**الثقة الفضائل الاجتماعية ودورها في خلق الرخاء الاقتصادي**،تر: معين الايمام ومجاب الامام،قطر: منتدى العلاقات العربية والدولية،2015،ص76

8- الكس ميكشيللي،مرجع سابق،ص ص 138-139.

9- فؤاد زكريا،مرجع سابق،ص120.

10- نفس المرجع،ص121.

11- ديناميكية اللعب في الحضارات والثقافات الانسانية ص ص548-549.

12- فؤاد زكريا مرجع سابق،ص ص122-123.

13- نفس المرجع،ص ص127-129.

14- دينيس ألكساندرروفيتش تشيكالوف وفلاديمير ألكساندروفيتش كوندراشوف،**تاريخ الثقافة العالمية**،تر: عماد طحينة،أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة،2014، ص ص366-367.

15- نفس المرجع،ص ص379-380.

16- الكس ميكشيللي،مرجع سابق،ص144.

17- روجر روزنبلات،مرجع سابق،ص22.

18- بيار كونيسا،**صنع العدوأوكيف تقتل بضمير مرتاح**،تر: نبيل عجان،بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،2015،ص209.

19- جان كلود برترند،**أدبيات الإعلام (ديونتولوجيا الإعلام)**،تر: رباب العايب، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،2008، ص.36

20- إبراهيم إسماعيل،**الإعلام المعاصر وسائله مهاراته تأثيراته أخلاقياته**،قطر: وزارة الفنون والثقافة والفنون والتراث،2014،ص227.

21- أدبيات الاعلام، ص 39

22- ادبيات الاعلام،ص.103

23- فؤاد زكريا،مرجع سابق،ص 72.

24- محمد علي فرح،مرجع سابق،ص ص 239-.240

25- لورانس إ. هاريزون وصموائيل. ب. هنغتنتون،الثقافات وقيم التقدم،تر: شوقي جلال،ط2،القاهرة: المركز القومي للترجمة،2009،ص15.

26- لورانس إ. هاريزون وصموائيل هنغتنتون،مرجع سابق،ص32.

27- ادبيات الاعلام،ص.52

28- لورانس إ. هاريزون وصموائيل هنغتنتون،مرجع سابق،ص33.

29- صموائيل هنغتنتون،الثقافات وقيم التقدم،ص66.

30- أوتفريد هوفة،**الأخلاق السياسة في عصر العولمة**،تر عبد الحميد مرزوق،القاهرة: المركز القومي للترجمة،2010،ص.257

31- لورانس إ. هاريزون وصموائيل. ب. هنغتنتون،مرجع سابق،ص486.

32- جان كلود برترند،مرجع سابق،ص.40

33- جان كلود برترند،مرجع سابق،ص.92

34- مركز الدلراسات والترجمة،أدمغة من ذهب،ص26.

35- لورانس إ. هاريزون وصموائيل. ب. هنغتنتون،مرجع سابق،ص489.

36- نفس المرجع،ص495.

37- فرنسيس فوكوياما،مستقبلنا بعد البشري،تر: إيهاب عبد الرحيم محمد،أبوضبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، 2006ص13

38- صموائيل هنغتنتون،مرجع سابق،ص48.

39- **الاحساس بالعولمة التعاون الدولي في مأزق**،تر: عاطف عبد الحميد،القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة،2005،ص 179.

40- بروس روبنز،الاحساس بالعولمة التعاون الدولي في مأزق،ص 179.

41 محمد علي فرح،مرجع سابق،ص ص 137-.138

42- فرنسيس فوكوياما،مستقبلنا بعد البشري،تر ايهاب عبد الرحيم محمد،أبوضبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2006 ص16.